من مصادر التاريخ الديني والاجتماعي على عهد العلويين :

مخطوط "درر الحجال" لليفرني

حسن جلاب

مؤلف كتاب «درر الحجال في سبعة رجال» مؤرخ مشهور، هو أبو عبد الله محمد الصغير بن محمد بن عبد الله اليفرني المراكشي. أصله من سوس، وهو من مواليد مراكش سنة ثمانين وألف. درس بها، وبالقرويين.

اشتهر بمؤلفاته التاريخية :

- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي : في تاريخ الدولة السعدية وظهور الدولة العلوية إلى عهد المولى إسماعيل. ذيّل به الأنيس المطرب لابن أبي زرع، وروضة النسرين لابن الأحمر، فأتم تاريخ الدول المغربية إلى عصره.

- وخص السلطان الذي عاصره بكتاب هو : روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف.

وإذا كانت كتب التاريخ تركز على الأحداث السياسية والعسكرية، ولا تولي نفس الاهتمام للجوانب الاجتماعية والاقتصادية، فإن المؤرخين يلجأون عادة إلى كتب المناقب والتراجم لسد هذه الثغرات، بل ويعتبرونها أكثر صدقاً في تناول الأحداث، لأنها لم تكتب تحت توجيه أو ضغط ما[1].

- وقد أدرك اليفرني ذلك فألف صفوة ما انتشر من علماء القرن الحادي عشر، لتكون مكملة لنزهة الحادي.

فكان بذلك من المتخصصين في تاريخ هذا القرن (ألف الصفوة كذلك لتكملة تراجم الدوحة). وكان اهتمامه منصباً على مشايخ الجنوب بحكم انتمائه إليه، وخاصة أولئك الذين ينتسبون إلى مراكش.

واعتمد المصادر الموثوق بها، والروايات الدقيقة، وخلصه من الخرافات والأساطير المبالغ فيها مكتفياً بالكرامات المعقولة المنسوبة إلى مترجيه.

وفي هذا الإطار ألّف كتابه «درر الحجال» :

- لتدوين جانب من التاريخ الديني والاجتماعي للمغرب بدراسة هذه الظاهرة والملابسات الدينية والاجتماعية والسياسية التي أفرزتها وانعكاساتها على الأوضاع في البلاد.

- والتعريف بأعلامها ومذاهبهم وطرقهم الصوفية، ومناقبهم ومدى تأثيرهم في رجالات عصرهم.

وإذا كان الهدف الأول قد تحقق - وبكثير من النجاح - فقد سدّ العثور على الكتاب كثيراً من الثغرات، وصحح الأوهام التي وقعت فيها

1) مؤرخو الشرفاء 68. تعريب عبد القادر الخلادي.

المؤلفات اللاحقة التي لم تعتمده، فأن الهدف الثاني لم يتحقق إلا جزئياً، ذلك أن المؤلف لم يتمكن من إكمال الكتاب، فلم يُعرّف إلا باثنين من السبعة، هما : يوسف بن علي، وعياض.

وصلتنا من الكتاب نسخة فريدة بخط المؤلف[2] تقع في ثمانين صفحة من الحجم الكبير، في كل صفحة ثلاثة وعشرون سطرا في كل سطر بين خمس عشرة، وسبع عشرة كلمة. ويتخلل الصفحات بياض في الأصل يبدو أن المؤلف تركه للتصحيح أو استكمال المعلومات فلم يعد إليه.

تاريخ تأليف الكتاب : يعتقد بروفنصال أن «درر الحجال» كتب قبل سنة سبع وثلاثين ومائة وألف، وهو تاريخ كتابة «الصفوة» حسب ما ذكره الحوات[3]، وتبعه في ذلك محمد الأخضر لتحديد الفترة بين ثمان وعشرين ومائة وألف (تاريخ تأليف اليفرني لأول كتاب : المسلك السهل) وسبع وثلاثين ومائة وألف (تاريخ تأليفه للصفوة).

ويسمح لنا هذا الكتاب باقتراح تاريخ أدق للتأليف وهو : بين أربع وثلاثين ومائة وألف. فقد ورد في «الدرر» أن المؤلف اقترح على والي مراكش بناء ضريح أبي يعقوب يوسف في تلك السنة بعدما داهمه سيل جارف ـ وسبع وثلاثين ومائة وألف تاريخ كتابة «الصفوة» آخر مؤلفات اليفرني.

---

2) توجد بمكتبة خاصة بالرباط. وقد سمح لنا مالكها بتصويرها ـ مشكورا ـ انظر تعليق الأستاذ محمد المنوني عليها في كتابه «المصادر العربية لتاريخ المغرب» 70/1. رقم الكتاب 425. ط. الرباط 1983.

3) مؤرخو الشرفاء 90.

ـ **مضمون الكتـاب :** خطـط المؤلف لإخراج كتـابـه في حجم كبير، فجعله في **مقدمة** طويلة وسبعة **أسماط**. إلا أنه لم يتيسر له تنفيذ ذلك، إذ أن أغلب فصول المقدمة ناقصـة أو لم تكتب في الأسـاس. كما أنـه لم يضع إلا سمطين من أصل الأسماط السبعة.

ـ **المقدمة :** تتكون من ثلاثة وثلاثين فصلا مصنفة كالتالي :

حالة الفصول	**التعيين**	**المجموع**
فصول تامة	4 ـ 5 ـ 6 ـ 9 ـ 22 ـ 23 ـ 24 ـ 26 ـ 27 ـ 29 ـ 30 ـ 31 ـ 32 ـ 33	14
فصول ناقصة	2 ـ 3 ـ 8 ـ 10 ـ 11 ـ 12 ـ 13 ـ 16 ـ 20 ـ 25 ـ 28	11
فصول ساقطة أو لم تحرر أصلا	1 ـ 7 ـ 14 ـ 15 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 21	8
	المجموع	33

وتتناول هذه الفصول التمهيدية ثلاثة محاور أساسية :

المحور الأول : الولايـة والأوليـاء : الكتـاب مبتـور الأول يبـدأ بجزء من الفصـل الثـاني، وبعبـارات : (وعن القشيري أن دواء القلب خمسـة

أشيـــاء : قراءة القرآن، خـلاء البطن، قيـــام الليـــل، التضرع عنـــد السّحَر، ومجالسـة الصـالحين...) ويـنـاقش في المحور الأول قضـايـا الولايـة والأوليـاء المطروحـة في كتب التصوف : مـاهيـة الولايـة هل هي ظنيـة أو قطعيـة، فضل ذكر الأولياء، واستعراض كرامـاتهم ومنـاقبهم (تبرير تـأليف الكتـاب) وفضل محبتهم وموالاتهم، والفروق الموجودة بين أصنافهم : السلك، المجـذوب، الملامتي[4].

ويقف مـوقفـاً سلبيـاً من مـدعي التصـوف ومنتحلي الـولايـة من معـاصريـه : (قلت وقـد كثر قـوم يمشـون في الطرقـات منكشي العـورات، مرتكبين لمباحات ومحرمات، ويسميهم الناس بالمجاذيب. وعادتي أنـا فيهم أن أعرض عنهم، فـلا أعرض لهم بـإنكار ولا بتسليم) مـع أنـه يـورد آراء كبـــار الفقهاء في الإنكار عليهم كابن حجر[5].

وتنـاول في هـذا المحـور كـذلـك مراتب الأوليـــاء : القطب، الغـوث، البَدَل... ومسألة المفاضلة بين علـاء الظـاهر والبـاطن... (لأن من الرجـال السبعة الذين قصـدنـا جمع منـاقبهم من غلب عليـه علم الظـاهر، ومنهم من غلب عليه علم الباطن)[6].

فرجّح رأي الجمهور، ومنهم شيخـه أحمد السـوسي في تفضيـل حـامـل العِلْمين معا على حـامل علم واحـد. ونـاقش اليفرني كـذلـك مسـائل أخرى مثل : هل الأولياء معصومون أو لا ؟ هل يعلم الولي أنهَ وَلي ؟ هل يسلب

---

4) درر الحجال 7.

5) درر الحجال 8.

6) درر الحجال 12.

من الولايـة ؟ وهل يبلغ الـولي درجـة يسقـط عنـه فيهـا التكليف ؟ هـل الكرامات ثابتة في حقهم ؟...

وهي مسـائل كثيرة الورود في كتب التصوف. يتخـذ منهـا المؤلفـون مواقف متباينة من مُثبت ومنكر لهـا. ويعتمـد كل فريق على قرائن نقليـة، وبراهين عقلية. وساقها في هذه المقدمة لأنها ظلت من الموضوعات المطروحة بإلحاح في عصره.

المحور الثاني : الزيارة وآدابها : طرح المؤلف بـاختصـار موضوع زيارة الأولياء وآدابها كما جاءت في بعض كتب التصوف، وكما هي ممارسَة في عصره، مُبديا وجهة نظره فيها.

فمن شروطهـا : الطهـارة، المشي على الأرجل، خلـع النّعلين من بـاب المقبرة، تخصيصهـا بـالـولي المقصـود دون غيره، استقبـال وجـه الـولي، قراءة الفاتحة...

وناقش قضايـا أخرى أهل أهميـة مثل : هل يجوز طلب الـدعـاء من الغير أو لاَ ؟ ما مصير الصـدقـات التي تهـدى للأوليـاء ؟ وهل ينتفعون بما يقرأ في أضرحتهم من قرآن ؟ ومسألة بنـاء المسـاجـد على قبور الصـالحين ؟ وحكم اختيار الصلاة فيها، والدفن بالقرب منها[7]. وحكم الحلف في روضات الصالحين ونقل التراب الموجود عنـد قبورهم تبركاً ؟ والتجـاء أربـاب الجرائم والجنايات إلى أضرحة الأولياء ؟

وقـد أثـارت هـذه المسـألـة الأخيرة اهتمامـه فعرض آراء العلمـاء فيهـا بتفصيل. وهي آراء تميل في اغلبهـا إلى القول بضرورة إخراجهم لأنهم هتكوا

7) درر الحجال 40 ـ 41.

حرمة أنفسهم، فأبطلوا ما جعل الله لهم من الأمن. إلا أن اليفرني يأخذ موقفا مخالفا لهذا، اقتضته الظروف الخاصة بالبلاد (... لأن **هذا المغرب كثير فيه الحيف من الولاة** في الأموال والدماء وغير ذلك، فجعل المظلومون يلوذون بضرائح الأولياء، فيتحصنون بذلك منهم، لِمَا في أنفس كثير من الولاة من تعظيم أمر جانب الأولياء، ولما يرون من العقوبة النازلة بمن يهتك حرمات الأولياء، إذ جُرب ذلك حتى صار أمرا متحققا عند الخاص والعام.

ثم صار من كان ظالما إذا دخل تلك الأحرام أمن على نفسه، ولا يعرض له أحد... فلو كنا نخرج الجناة وأرباب الجرائم منها لكَوْن الشرع أخرجهم ... ربما أدّى ذلك إلى إخراج المظلومين لأن الولاة ربما يقيمون عليهم حججاً شرعية، فسدّ الناس هذا الباب كله رعيا لهذه المصلحة العامة التي تحققنا فائدتها، وجربنا منفعتها)[8].

ومذهب مالك مبني على مراعاة المصالح، وسد الذرائع.

المحور الثالث، زيارة سبعة رجال مراكش : راعى المؤلف التسلسل الموضوعي في عرض هذه المحاور، فبعد الحديث عن الأولياء، والزيارة وآدابها، يخلص إلى المهم وهو زيارة أولياء مراكش. فيكون بذلك قد عرّف بمفهوم الولاية وأقر مشروعية الزيارة وشروطها... ويعتبر هذا المحور أهم ما في الكتاب على الإطلاق باعتبار مؤلفه أول من يطرح ظروف وملابسات تنظيم الزيارة والأهداف منها.

8) درر الحجال 41 ـ 42.



وسيكون بذلك المصدر الرئيسي في الموضوع. وقد عرض هذا الموضوع في ثلاث نقط أساسية :

1 ـ مشروعية شد الرحال لزيارتهم منتقداً من سماهم (المتفقهة) الذين أخذوا بظاهر الحديث الصحيح المتفق عليه عند الشيخين (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى) مبيناً أن الحديث محمول على شدها للصلاة، أما شدها لغير هذه العبادة فمباح : فالزيارة تذكّر بالموت، وتكون للاعتبار... بدليل أن الرسول ﷺ كان ياتي حِراء وقباء[9].

2 ـ سبب تعيين هؤلاء السبعة رجال، وتخصيصهم بالزيارة من بين صلحاء المدينة، ومتى كان ذلك ؟

يرتبط هذا التنظيم بالأحداث التي عرفتها منطقة الجنوب (الشياظمة، حاحا، سوس) منذ أواخر العصر المريني عندما ضعفت السلطة المركزية بها، وظهرت طلائع الغزاة الأجانب ـ وخاصة البرتغال ـ في الشواطئ. مما جعل السكان يتطلعون إلى زعماء القبائل وشيوخ الزوايا والرباطات لإنقاذ البلاد، ودفع الأجنبي الدخيل عنها.

وانطلقت الدولة السعدية من هذه المنطقة معتمدة على شيوخ الطرق والزوايا، واستمرت هذه الحركة الدينية خلال العصر السعدي بكامله، وعندما بلغت الدولة مرحلة الضعف بسبب الصراع الذي احتدم بين أبناء المنصور الثلاثة حول الملك، فكوّن الطرقيّون إمارات محلية سعت كل واحدة

9) درر الحجال 61.

إلى تمديد مناطق نفوذها. ومن هؤلاء : ابن أبي محلي، أبو زكرياء الحاحي، أبو حسون السملالي، احماد وموسى بتزروالت، رجال رجراجة بجبل الحديد، وأتباع الجزولي بالشياظمة...

وقد حدثت مواجهات بينهم وبين ملوك السعديين، ومنهم من اقتحم العاصمة مراكش بجيوشه[10].

وكان السكان يحترمون رجال رجراجة ويستجيبون لتوجيهاتهم باعتبارهم أشرف قبائل مصمودة. وتذكر المصادر أن الطبقة الأولى منهم كانوا مع روح الله عيسى وآمنوا بما جاء به، وأنهم من الحواريين[11]. وعندما سمعوا ببعثة محمد ﷺ سافر سبعة منهم إلى المدينة، واتصلوا به، فخاطبهم بلسانهم وحمّلهم رسالة الإسلام إلى بلادهم.

وبعد عودتهم إلى رجراجة نشروا بها الإسلام، حتى إذا قدم عقبة لفتح بلاد المغرب، وجد رجراجة موحدين مجتهدين في الدين فبنى لهم مسجدا بساحل حربلة (رتنانة)[12].

وخلد رجراجة حدث التجمع لقراءة الرسالة النبوية والتفرق في البلاد لنشر تعاليمها باجتماع الطوائف في نفس المكان (قرب جبل الحديد)، وتطور بعد ذلك إلى زيارة الأولياء والصلحاء بعد الاجتماع الذي ينعقد في

---

10) انظر الأحداث بتفصيل في الاستقصا 6/ 30 ـ 50.

- Les bérbères et le maghzen dans le sud du maroc, R. Montagne. Paris 1930, pp. 83 et 98.

11) العيون المرضية، لمؤلف مجهول، مخطوطة خاصة، ص 4 ـ 6.

12) العيون المرضية 18 ـ 26.

ربيع كل سنة. وتكون نقطة ضريح الولي أبي بكر الشماس، ثم باقي الأولياء في نظام معلوم لديهم، ويستغرق الطواف مدة أربعين يوماً يجوب فيه سكان تلك المناطق أطرافاً من الشياظمة وحاحا بما في ذلك جبل الحديد إلى سواحل المحيط الأطلسي حيث رباط كَوز ومصب تانسيفت.

ومع أن الطواف كان مركزا على سبعة رجال رجراجة (الصحابة) فإن العادة جرت بجعلهم معالم وزيارة غيرهم من أولياء منطقة رجراجة.

وسبعة رجال رجراجة هم :

- وسمين الياس، في طرف جبل الحديد (متسلم الرسالة من الرسول حسب الرواية) عبد الله اوناس (عند المناصرة).
- عيسى بوخابية (على طرف وادي تانسيفت).
- يعلى بن واطيل (في امسكر).
- سعيد بن يبقى (عزب وادي شوسران).
- أبو بكر الشماس (بأقرمود).
- ابن صالح بن أبي بكر (بأقرمود)[13].

وقد كانت معركة جبل الحديد بين محمد الشيخ بن زيدان والشياظمة سنة خمسين وألف للهجرة الصدى الكبير في أنحاء المغرب، ذلك أن السلطان السعدي حاول إعادة الأمن إلى البلاد بإخضاع المناطق الثائرة التي كانت تهدد كيان الدولة. ومع أنه أخذ كامل عدته لمواجهتهم فقد تمكنوا من إلحاق

13) العيون المرضية 40 ـ 41.

هزيمة بجيشه، فكانوا يشيعون بين النـاس أنهم انتصروا بفضل سبعـة رجـال، وأن عيسى بوخابية يضمن للشياظمة أن من أتاهم بقصد الفتنة يهزم[14].

والحقيقـة أن الشيـاظمـة استغلوا هـذا الانتصـار لتوطيـد مكانتهم بين الـزوايـا والطرق في منطقـة سـوس، وهـو لا يـدل على قـوة فعليـة لضعف السلطان المواجه لهم. ففي الاستقصا أنه ثار عليه رجل من هشتوكة خـارج باب الخميس (قاسى في محـاربتـه تعبـاً شـديـدا)[15]، فكيف إذا تطلب الأمر مواجهة قبـائل بكاملهـا في عقر دارهـا، بمنطقـة جبليـة، وذات إيمـان راسخ بالنصر.

وكان همّ الدولة العلوية الناشئة معالجة هذه الأوضاع الفاسدة بمحاربة المتمردين والثوار، وإعادة الأمن والوحـدة إلى البلاد. وفي هـذا الإطـار كانت مواجهـة المولى الرشيـد للزاويـة الـدلائيـة بـالأطلس المتـوسـط والشبـانـات بمراكش، وثوار سـوس (إيليـغ، تـزروالت...) وتمكّن فعـلاً من قطـع أشـواط كبيرة في هذا السبيل، إلا أن وفاته المفاجئة بمراكش جعلت مسؤوليـة إتمـام هذا العمل على عـاتق أخيـه المولى اسماعيل الـذي لم يجد صعوبـة تـذكر في توطيد الأمن بالبلاد.

إلا أنه كان يدرك رسوخ إيمان سكان سوس بأوليـائهم وتعلقهم بهم إلى أبعد الحدود، مما جعل الثوار والخارجين يلجأون دائمـاً إلى سوس، ويعتمـدون في تأليب العامة وجلبهم وإثـارة مشـاعرهم الـدينيـة وترويج أمور الزيـارة

14) العيون المرضية 78.

15) الاستقصا 84/6.



والأوليـاء. (كان ابن محرز الشـائر على عمـه المـولى اسماعيـل دائم اللجـوء إلى سوس).

فكان **أول عمل** قام به المولى اسماعيل هو تجريدهم من القـداسـة بـأن طلب من العلماء الإفتاء في أمر صحبتهم. فـأفتت جماعـة منهم وعلى رأسهم محمد بن عبد القادر الفاسي بعدم صحّة ما قيل بزيارتهم للرسول ﷺ بـدليل أن الصحـابي الوحيـد الـذي دخـل المغرب هـو **أبـو زمعـة البلـوي** دفين القيروان. إلا أن علمـاء آخرين دافعـوا ـ فيما بعـد ـ عن صحـة صحبتهم معتمدين في ذلك على أحاديث واجتهادات.

ويأتي على رأسهم محمد بن سعيد المرغيثي[16].

والخطوة الثـانيـة التي خطـاهـا هي تنظيم زيـارة مضـادة لسبعـة رجال مراكش «عرب» مقابل الزيارة السابقة لسبعة رجال رجراجة «بربر». ووفر للزيـارة الجديدة كافة وسـائل النجـاح لتجلب إليهـا الأنظـار وتـأخـذ مكانة الزيارة السّابقة وَصَيْتَها. ويُعتقـد أن الإمـام اليوسي هو الـذي أشرف على التنظيم.

---

16) العيون المرضية 14 ـ 19 وصفحات 9 ـ 12 ـ 13. وتوجـد لائحـة طويلـة للقـائلين بصحـة صحبتهم في مجلة المغرب عدد يونيه، يوليوز 1936. ولميشُو بيلير رأي في الموضوع فعنده أن النبي الذي زارته رجراجة هو صالح بن طريف البرغواطي الـذي كان يتكلم بلسـان البربر، فأشاعوا أنهم زاروا مكة، ونبي الإسلام أنظر :

– Michaux Bellaires : Les confréries religieuses p. 16.

هذه هي الأطروحة السائدة في أغلب المصادر التي تناولت موضوع سبعة رجال مراكش عربية وأجنبية[17]. إلا أن هناك تساؤلات تبقى مطروحة دون جواب، من شأنها أن تعيد النظر في الأُطروحة من أساسها :

أ ـ ان المصدر الذي بين أيدينا ـ درر الحجال لليفرني ـ ينسب تنظيم الزيارة للعصر السعدي. فقد ورد فيه عرض الأحداث (أي انتصار رجراجة على محمد الشيخ) : (... وشاع في الناس أن الرجال السبعة بهم نصرت الشياظمة ولما بلغ ذلك **السلطان المذكور** ـ أي محمد الشيخ ـ قال له بعض علماء مراكش إن عندنا بمراكش سبعة رجال، كما لهم سبعة رجال. فلو قصدهم السلطان وتملّق ببابهم عسى أن يرزقه الله الكرة على الشياظمة، فقال السلطان أفعل ذلك إن شاء الله، فمن هم السبعة ؟ **فنظم العالم فيهم قصيدة** يقول :

بمراكش لاحت نجومٌ طوالع ... جبال رواسٍ بل سيوفٌ قواطِع
فمنهم أبو يعقوب ذو الغار يوسف (1) ... إليه تُشير بالأكفّ الأصابع
ونجلُ أبي عمران عياض (2) الذي ... إلى علْمِه في الكون تُصغِي المسامع
وبحرُ أبي العباس(3) ليس يخوضه ... سواه كريم لا يزال يمانع
ونجل سليمان الجزولي(4) فضْلُه ... شهيرٌ ومن يدعو إليه يُسارع
وتبّاعهم(5) بحر الكرامة والهدى ... وسيّدنا الغزواني(6) نوره ساطع
أبا القاسم السهيلي(7) دأباً أضف لهُم ... إمام التقى والعلم بحره واسع

---

17) مثل الكواكب السيارة، إظهار الكمال، السعادة الأبدية...

Les sept patrons de Marrakech. H. Decastries, Hésperis 1924.

فزرهم على الترتيب في كل حاجة يسهلها المولى وعنك يدافع
فيا أهل الله قوموا بسرعة وجدّوا بسيركم فإني ضارع
فعار عليكم أن يضام عبيدكم وقد مدّ بينكم يداً والأصابع
فنجمكم نجم السّلامة والهُدى وفضلكم بين البريّة شائع[18]

ومما يؤسف له أن هذا الفصل (الثاني والثلاثين) غير تام، شأن كثير من فصول الكتاب، ولا توجد منه ـ حسب ما نعلم ـ إلا هذه النسخة الخاصة التي رجعنا إليها وهي بخط المؤلف[19]. فهل عاد اليفرني إلى الحديث عن دور المولى اسماعيل في إحياء طواف سبعة رجال مراكش وتجديده ؟

ب) ونلاحظ أن اليفرني لم ينسب القصيدة لليوسي إذ اكتفى بالقول : (فنظم له العالم فيهم)، ولم ينسبها له كذلك محمد الغالي بن المكي في بادرة الاستعجال إذ قال : (ونظم **بعضهم** كيفية الترتيب فقال). الأبيات[20]، بل إن هذا الأخير لم يفصِل في مسألة التنظيم كذلك : فإن قلت أول من اخترع هذا الترتيب في الزيارة، وأقر بالاقتصار على السبعة، قلنا الله أعلم بذلك ما وقفنا على شيء)[21].

---

18) درر الحجال 56. انظر القصيدة كاملة في إظهار الكال 24.
19) لاوجود للنسخة التي أشار إليها صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى 1/ 259.
20) بادرة الاستعجال 15.
21) بادرة الاستعجال 20. وردت الجملة قبل ذلك في المجد الطارف والتالد لمحمد الأمين الصحراوي صن 27.

أما الذي نسب القصيدة العينية لليوسي فهو محمد الأمين الصحراوي في كتابه : «المجد الطارف والتالد» وتبعه في ذلك صاحب الاعلام ومن جاء بعده.

ولا نطمئن لذلك إذ كان عُمُر اليوسي عندما قيلت القصيدة حوالي سنة خمسين وألف للهجرة ـ حسب نص اليفرني ـ لا يتعدى **عشر** سنوات ؟

وأمام افتقارنا للدليل، ووضوح عبارة اليفرني لا يسعنا إلا القول برجوع التنظيم إلى عصر محمد الشيخ، إلا أن هذا لا يمنع من أن يكون المولى اسماعيل أمام تجدد الأحداث في منطقة رجراجة ورغبته في إخمادها وقطع دابرها، عاد إلى إحياء زيارة بشكل يوفر لها هذه المرة النجاح الذي لم تصادفه في المرة السابقة.

ولا نجزم بقيام اليوسي بهذه المهمة، فحتى مدحه للرجال السبعة لا يقوم دليلاً على ذلك لتوفر ديوانه على كثير من أمداح الشيوخ والطرقيين والأولياء. وفي كتابه «المحاضرات» إشارات إلى هذه الزيارات سواء بمفرده أو مع بعض أفراد أسرته. وفي الصفوة أنه كان خلال مدة إقامته بمراكش للتدريس بحي الهواسين يزور الأضرحة (وربما يبيت في ضريح بعض الأولياء)[22]. وقال عنه كذلك (وكان كثير الزيارة لقبور الصالحين، بحّاثاً عن قبورهم حتى استخرج عدّة مزارات غابرة)[23]. وكان اليوسي يسلك في ذلك منهج السّلف في الإيمان بالزيارة للتذكرة والاعتبار والترحم على

22) الصفوة 208.

23) الصفوة 209.

الأولياء. وينتقد تقديس الناس لهم وسؤالهم الحاجات (فإن كان يعتقد في الشيخ أنه هو الذي يعطي وينفع، وقطع النظر عن الله تعالى فهو مشرك يجب عليه أن يسلم)[24].

ج) تحديد التاريخ : وحسب ما جاء في «درر الحجال» أن معركة جبل الحديد كانت حوالي خمسين وألف للهجرة (تولى محمد الشيخ سنة خمس وأربعين وألف) وبذلك فإن تاريخ تنظيم الزيارة الأولى يعود إلى ما بعده بقليل. أما تجديد المولى اسماعيل لها فكان حوالي سنة مائة وألف[25]، أي بعد فراغه من حروبه مع ابن أخيه ابن محرز، وأخيه الحران بسوس ومراكش[26].

3 ـ الحكمة في كونهم سبعة لا أقل ولا أكثر : تحدث اليفرني عن أهمية هذا الرقم في مظاهر الكون، فنقل عن أبي نصر عبد الرحمن الهمذاني في كتاب «السبعينيات» قوله : إن الأعداد السبعة لها عند الله خطر عظيم ومحل جسيم، ولذلك زين الهواء بسبع سماوات، وزينها بسبعة نجوم، فقال : ﴿**وزيناها للناظرين**﴾. وزين الفضاء بسبع أرضين، وسبعة أبحر. والنار بسبع دركات ثم زينها بسبعة أبواب.

وزين القرآن بسبعة أسباع، ثم زينها بالسبع المثاني. وزيّن الكون بسبع كلمات هي : لا$_1$ ـ إله$_2$ ـ إلا$_3$ ـ الله$_4$ ـ محمد$_5$ ـ رسول$_6$ ـ الله$_7$.

---

24) رسالة إلى المقدمين، من رسائل اليوسي، تحقيق فاطمة خليل 397/2.

25) Les 7 patrons de Marrakech, Hespéris 1924. –

26) انظر حروبه مع الحران وابن محرز في الاستقصا 7/ 49 ـ 60 ـ 63.

والدنيا بالأقاليم السبعة، والأقاليم بالأيام السبعة[27].

كما تحدث عن وجود سبعة يدفع الله بهم عن أهل الأرض... وتَيَمّنِ الناس به دون غيره من الأرقام[28].

ختم المقدمة بذكر الهدف من التأليف (... فالقصد به أولا وبالذات خدمة جناب أولئك السادات. والسبب الحامل عليه، محبتي فيهم)[29].

جسّد هذه المحبة بالأبيات التي ختم بها المقدمة، منها قوله :

يا سادتي أنا عبدكم فلْتجبروا ... كسري وفكّوا عن فؤادي عائقه
أنتم حُماة الحَي فاقضوا حاجتي ... واشفوا فؤادي من هموم لازقه

ومن مظاهره مدحه لأبي العباس السبتي بقصيدة مطلعها :

إن ترد نيل الأمان ... في سرور مع تهان...

الأبيات[30]. وكذا الإقبال على قراءة أخبار الأولياء[31]، وخفض الجناح للأحياء منهم[32].

---

27) درر الحجال 57.

28) لهذا الرقم أهمية في التراث المسيحي واليهودي والإسلامي عموماً.

29) درر الحجال 58.

30) إظهار الكمال 181، وتعطير الأنفاس 79 ـ 80 ط. فاسية.

31) جمع كتابة «صفوة ما انتشر» من أزيد من 25 مصدراً في مناقب الأولياء.

32) رسالته إلى صالح الشرقي، في الاعلام 58/6، قال فيه :

الغيـــات الغيـــات يـــا أحرار ... نحن خلجـــانكم وأنتم بحـــار
إنمـــا نحن المـــواســـاة في الشـــدة لا حين ترخص الأسعـــار

ـ التعريف بمناقب سبعة رجال :

بعد هذه المقدمة الطويلة أفرد المؤلف كل واحد من سبعة رجال بترجمة مستقلة سماها «سمطا» :

السمط الأول، في التعريف بيوسف بن علي الصنهاجي :

اعتمد اليفرني في هذه الترجمة ـ بالأساس ـ على ما جاء في التشوف من تعريف بأبي يعقوب وشيخه وطريقته وابتلائه بالجذام، وشكر الله على ذلك، وكراماته في حياته، وبعد وفاته.

ويمكن تصنيف إضافاته إلى صنفين :

1 ـ تعليقات واستطرادات : علق على بعض أقوال التادلي، وخاصة عبارته (وكان صابرا راضيا) موضحاً فسادها، لأن الصابر ليس براض والراضي ليس بصابر. منتهياً بعد شرح طويل إلى أن المترجم له كان راضياً لا صابراً.

أما الاستطرادات فكثيرة، إذ كلما أثيرت مسألة في الترجمة إلا واستطرد إلى شبيهة لها مما شاهده أو رُوي له (قصة وليّ ابتُلي بالجذام شبيهة بقصة أبي يعقوب ـ حديث عن أبي يعزى وطريقته وشيوخه ـ وعن أبي مدين ومذهبه...).

2 ـ معلومات جديدة عن المترجم له، لم يذكر سنده فيها أو المصدر الذي استقاها منه. مع حرصه ـ عادة ـ على التوثيق في كتاباته (لجوء أهل

مراكش إليه لحمايتهم من سلطان جائر،[33] وجود علاقة قرابة بين أبي مدين الغوث وأبي يعقوب).

وفي الترجمة وثيقة مهمة حول بناء ضريح أبي يعقوب سنة أربع وثلاثين ومائة وألف[34].

هذه الإضافات والاستطرادات لا تمنعنا من القول بأن ترجمة أبي يعقوب بقيت كما كتبها التادلي في مطلع السابع الهجري، ولم تظهر معلومات جديدة تساعد على فهم هذه الشخصية، وكشف المجهول من سيرتها.

السمط الثاني، القاضي عياض : لم يتيسر لليفرني أن يختم هذه الترجمة. فقد انتهت صفحات الكتاب في بدايتها. ولم يتضمن ما ذكره منها أي جديد عن عياض، إذ اكتفى بنقل ما جاء عنه في كتاب التعريف لابن أبي عبد الله محمد، فتحدث عن نسبه، وانتقال أجداده من الأندلس إلى المغرب، ودراسته وشيوخه... وزهده في الدنيا وأخلاقه وسيرته مع معاصريه.

ولعل ما تميز به عن المصدر السابق مناقشته للعبارة المشهورة : (لولا عياض لما ذكر المغرب) وجواب أبي علي اليوسي عندما سئل عن حد حرم الشيخ خلال زيارته لضريحه ؛ فقال (المغرب كله حرم لأبي الفضل)[35].

---

33) كان يعقوب المنصور المعاصر له ـ على العكس من ذلك ـ كثير الصدقات على المساكين والفقراء، واشتهر بعدله ورعايته لمصالح السكان. المعجب، 284. ط. 1949.

34) درر الحجال 65.

35) درر الحجال 79.



وقصد بإيراد المقولتين تأكيد ما رواه عن فضل عياض ومكانته بين علماء المغرب وأوليائه.

خصائص الكتابة الصّوفية في «درر الحجال» :

يسمح لنا ما وصلنا من «درر الحجال» بإبداء الملاحظات التالية :

1 ـ الإكثار من التقسيمات والفصول. فقد عقد ثلاثة وثلاثين فصلاً للحديث عن ثلاثة محاور أساسية. وجاءت مختصرة لا تتعدى بضعة أسطر في الغالب. ولم يتعد بعضها الآخر الصفحة الواحدة، وبلغ أطولها ثمان صفحات، وهو الفصل الذي تناول فيه كرامات الأولياء.

ولعل مردّ هذا الاختصار عائد إلى موقع الفصول من الكتاب، فهي عبارة عن مقدمة لا غير.

2 ـ تعكس موضوعات المقدمة مشاغل عامة الناس في عصر المؤلف : مناقب الصلحاء، المفاضلة بين علماء الظاهر والباطن، إثبات كرامات الأولياء، وهي أحياناً متواضعة : كمناقشة مسألة تقديم الصدقة للولي، وأخذ التراب من القبور وقراءة الفاتحة عندها، والحلف في الروضات والأضرحة... وهي مسائل لا أهمية لها في ذاتها، وتقوم دليلاً على المستوى الذي آلت إليه الكتابة الصوفية في منتصف القرن الثاني عشر.

فقد ركزت على القشور وتركت جانباً الموضوعات الأكثر أهمية، والتي تعين المريد على معرفة نفسه ومجاهدتها ومعالجة عيوبها وعللها، قصد قطع المقامات، وتجاوز الأحوال، لبلوغ الهدف المنشود.

وقد كان لتقديس الأولياء وتتبع أخبارهم ومناقبهم أثر في تعدد مؤلفات الطبقات والتراجم «كالدّرر» الذي نتحدث عنه، والصفوة والنشر، والتقاط الدرر...

3 ـ ينوع المؤلف أساليب الاستدلال على ما يورده من آراء، ويعرض له من مناقشات، وهي بالأساس : القرآن والحديث، وأقوال السّلف، ومشاهير مؤلفي كتب التصوف.

ويُكثر من إعطاء الأمثلة وقصص الأولياء وخاصة المعاصرين له.

ويتوخى الدقة والضبط بالنقل عنهم مشافهة أو رواية، واختيار أصح الأسانيد عند تأخر أزمانهم. ويحتوي الكتاب على مجموعة من الأخبار المروية عن أصحابها مباشرة من معاصري المؤلف.

كما يستشهد بالنصوص الشعرية على عادة مؤلفات التصوف : كالتشوف، وأنس الفقير، وأثمد العينين... وغيرها، ويقصد به إثارة العواطف والانفعالات خدمة للمقصد العام.

4 ـ ويسعى إلى الإقناع بهذه الأساليب أكثر من استعمال أسلوب النقاش وإبداء الرأي. فهو كثير التردد بادي السلبية، قليلاً ما يبدي رأيه أو موقفه بكامل الوضوح. فما أكثر مثل تعبيراته (هذه المسألة كثر فيها النزاع بين الأئمة، وتشعبت فيها الآراء، ونحن نخلص كلامهم في ذلك تلخيصاً حسناً)[36]. وبالطبع دون إبداء رأي في ذلك.

---

(36) درر الحجال 46.

وفي مثل قوله عند حديثه عن الساعين للقبور حفاة (لكن عادتي أنا لا أنكر عليهم في ذلك)[37].

ويتخذ موقفا سلبياً من المجاذيب الذين يجوبون الطرقات شعثاً غبرا، قائلاً في موضوعهم (وعادتي أنا فيهم أن أعرض عنهم فلا أعرض لهم بإنكار ولا بتسليم)[38].

ويمكن رد هذه المواقف إلى ما شاع في عصر المؤلف من احترام الأولياء كيفما كان حالهم، وما يتناقله الناس من مناقبهم وكراماتهم وقدراتهم على معاقبة المنكرين عليهم والجاحدين لفضلهم، فلم تكن لليفرني الشجاعة الكافية للتخلص من هذه المعتقدات ومواجهة الموضوعات بتجرد.

ولعله كان أكثر جرأة عندما تعلق الأمر بمسألة لها أبعاد دنيوية كقضية التجاء أصحاب **الجرائم** إلى الأضرحة، واتخذ موقفاً صريحاً وهو منع إخراجهم منها سداً للذرائع وفقا للمذهب المالكي. إذ قد يلجأ إليها المظلومون كذلك لِمَا شاع في البلاد من ظلم الولاة والحكام، فيكون إخراجهم ظلماً لهم واعتداء على حُرمتهم[39].

5 ـ الاستطراد : كان اليفرني مولعاً بجمع أخبار الصوفية وأقوالهم ومناقبهم فحصل على قدر مهم منها كان له دور في ميله إلى الاستطراد فكلما تحدث عن حادث أو ظاهرة انساق إلى ما يعرفه من مثيل لها في محفوظه أو مشاهداته. وهي ظاهرة عامّة في التآليف العربية القديمة، لا تخلو

---

37) درر الحجال 31.

38) درر الحجال 8.

39) درر الحجال 42.

من فائدة بالرغم من سلبيتها منهجياً. فالمعلومات التي قدمها عن أبي يعزى، وأبي مدين مثلا **مفيدة جداً** وإن جاءت عَرَضاً في حديثه عن يوسف بن علي، وكذلك الشأن في كثير من فصول المقدمة.

6 ـ المصادر : لاحظ بعض دارسي «نزهة الحادي» أن اليفرني قد رجع فيه إلى أوثق المصادر المعروفة في عصره، واستعملها استعمالاً سليماً، وإلى المستندات المخزنية التي وقف عليها، ونقل منها بأمانة[40]، ونبّه بنفسه في مقدمة كتابه «صفوة ما انتشر» أنه اعتمد فيها على أزيد من عشرين مصدراً (ذكرها في آخر الكتاب) وقال :

(فكن أيها الناظر واثقاً بما فيه من الفوائد، عالماً أنها منقولة من الأصول المجردة من الزوائد)[41].

لقد سلك المؤلف نفس المنهج السليم في التعامل مع مصادر «درر الحجال» فكان يشير إلى اسم الكتاب، واسم صاحبه، ويحدد بداية النقول ونهايتها، ويضيف إلى المصادر المكتوبة الرواية الشفوية مهتماً بضبط الأسانيد وتدقيقها.

ومصادر ما وصلنا من «درر الحجال» متنوعة : أغلبها في موضوع التصوف، منها الأصول التي لابد أن يرجع إليها في هذا الموضوع كرسالة القشيري، والحكم العطائية، وحلية أبي نعيم، وتذكرة القرطبي... ومنها مؤلفات وشروح لبعض المغاربة كزروق في شرح الحكم، وشرح حزب البحر، وفي كتابه «القواعد»، والناصري في «أسئلته»...

40) مؤرخو الشرفاء 96.

41) صفوة ما انتشر 2.

ومنها مؤلفات في الصلاة والتسليم على النبي ﷺ مثل :

القول البديع للسخاوي - وضياء النهار في فضل الصلوات والأذكار لأبي القاسم بن محمد.

واعتمد كذلك كتب التراجم والمناقب وطبقات الأولياء : كالتشوف، ومناقب الجيلاني، والنجم الثاقب لابن صعد، والديباج لابن فرحون. وفهارس العلماء : كغنية غياض، وفهرسة العمري، وفهرسة المنجور. والنوازل : كنوازل ابن رشد، والنوازل القورية، ومعيار الونشريسي...

وأخيراً كتب الحديث وشروحها : كالصحيحين، ومسند أحمد، والموطأ... وذلك لتخريج الأحاديث الواردة في موضوع الزيارة، والولاية والتصليات...

7 - ويصير «درر الحجال» بدوره مصدراً مهماً لتوفره على معلومات لا توجد في غيره :

- منها ما يتعلق بالمؤلف نفسه، انفرد بذكر بعض الشيوخ الذين أخذ عنهم، وهم أبو علي المعداني، العربي بن أبي القاسم الأمراني، أبو عبد الله المسناوي. وإشارته على الولي بإصلاح ضريح أبي يعقوب كما هو عليه الآن.

- ومنها ما يتعلق بظاهرة سبعة رجال : تاريخ تنظيم الزيارة، وملابساتها وهذا ما خوّله مكانةً خاصة بين المصادر التي تناولت هذا الموضوع.

مراكش **حسن جلاب**

المصادر والمراجع

أ ـ المخطوطات :

1 ـ عباس بن ابراهيم المراكشي
إظهار الكمال في تتميم مناقب أولياء مراكش سبعة رجال
مخطوط الخزانة الحسنية رقم 232 (النسخة المطبوعة غير تامة).

2 ـ مجهول
العيون المرضية في ذكر مناقب الطائفة الرجراجية
مخطوط خاص بمراكش.

3 ـ محمد الأمين الشنچيطي الصحراوي
الجد الطارف والتالد على أسئلة الناصري أحمد بن خالد.
مخطوط الخزانة العامة بالرباط 588 ك.

4 ـ محمد الصغير اليفرني المراكشي
درر الحجال في سبعة رجال.
مخطوط خاص بالرباط.

5 ـ محمد الغالي بن المكي الأندلسي.
بادرة الاستعجال في مناقب السبعة رجال
مخطوط خاص بالرباط

6 ـ محمد المكي بن مريدة السرغيني
الكواكب السيارة في البحث والحث على الزيارة
مخطوط الخزانة العامة بالرباط 479 ك.

ب ـ المؤلفات المطبوعة :

7 ـ أحمد بن خالد الناصري
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى
طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954 ـ 1956.

8 ـ عباس بن ابراهيم المراكشي
الإعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام
المطبعة الملكية، الرباط 1974 ـ 1983.
9 ـ عبد السلام بن سودة
دليل مؤرخ المغرب الأقصى
طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1960.
10 ـ عبد الواحد المراكشي
المعجب في تلخيص أخبار المغرب
ط. القاهرة 1949. بتحقيق العريان والعلوي.
11 ـ ليڤي بروفنصال
مؤرخو الشرفاء
تعريب عبد القادر الخلادي، طبعة دار المغرب 1977.
12 ـ محمد الصغير اليفرني المراكشي
صفوة ما انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر
طبعة فاسية.
13 ـ محمد بن محمد المؤقت المراكشي
تعطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس
طبعة فاسية 1336.
14 ـ محمد بن محمد المؤقت المراكشي
السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية
طبعة فاسية 1335.
15 ـ محمد المنوني
المصادر العربية لتاريخ المغرب
طبعة الرباط 1983.
16 ـ اليوسي، أبو علي الحسن
رسائل اليوسي
تحقيق فاطمة خليل القبلي. طبعة دار الثقافة الدار البيضاء 1981.

ج ـ المقالات :

17 ـ حسن جلاّب
محمد الأمين الشنجيطي.
دعوة الحق، عدد 263، مارس 1987.

د ـ مراجع أجنبية :

18 ـ – Henri Decastries
Les sept patrons de Marrakech.
Hésperis. T. IV 3e trim. 1924.

19 ـ Michaux Bellaires
Les confréries religieuses au Maroc
Archives marocaines vol. XXVII, 1927.

20 ـ Robert Montagne
Les bérbères et le maghzen dans le sud du Maroc
Paris, 1930.

مراكش   حسن جلاب